نحمان بن يهودا *

انتحار جماعة السيكاري في متسادا وتأصيل خرافة قومية[1]

مقدمة

بسطت الإمبراطورية الرومانية سيطرتها على مقاطعة يهودا خلال القرن الأول للميلاد. وتسبّبت مجموعة متعاقبة من الحكّام الرومان، الذين اتّسموا بالعجز ولفَّهم الفساد، في إثارة درجة لا يستهان بها من الاستياء والاضطرابات التي اندلعت شرارتها في العام ٦٦ للميلاد، فيما يُعرف اليوم بـ"الثورة الكبرى" التي خاضها اليهود. وقد شكّلت هذه الثورة في جوهرها تحديًا لسيطرة الرومان وهيمنتهم المباشرة على هذه المقاطعة، وعلى المنطقة بصورة غير مباشرة. وردّ الرومان على هذه الثورة بقبضة من حديد، حيث تقدّمت بضعة فيالق رومانية من الشمال إلى الجنوب، ودمّرت القلاع وقمعت المقاومة. وفي نهاية المطاف، ضرب الجيش الإمبراطوري الروماني حصارًا على القدس وغزا المدينة ودمّرها في العام ٧٠ للميلاد، كما أحرق الهيكل اليهودي الثاني وأزاله عن بكرة أبيه. وبينما مثَّل هذا نهاية الثورة في واقع الأمر، فلم تزل ثلاث قلاع عصيّة على الرومان وتضمر التحدي لهم، وهي قلعة هيروديون (فريديس)، وقلعة مكاور وقلعة متسادا. وقد شرع الجيش الروماني في غزو هذه القلاع الثلاث وقمعها فيما يمكن وصفه على أنه عملية تطهير ببساطة. وكانت قلعة متسادا هي القلعة الأخيرة. واخترق الفيلق الروماني العاشر أسوار هذه القلعة، عقب حصارها، في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان من العام ٧٣ للميلاد. وكانت تلك نهاية قلعة متسادا وخاتمة "الثورة الكبرى".

* بروفسور متخصص في علم الاجتماع، الجامعة العبرية.

الواقع التاريخي كما ورد على لسان يوسيفوس فلافيوس مقابل الخرافة

تسود روايتان حول ما حدث في قلعة متسادا في العام ٧٣ للميلاد. ويقدِّم الرواية التاريخية الأولى منهما المؤرخ يوسيفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول للميلاد، أما الرواية الثانية فقد أُنتِجت في مطلع القرن العشرين وهي عبارة عن خرافة في جوهرها. وفي الوقت الذي تتقاطع فيه هاتان الروايتان وتتداخلان في بعض جوانبهما، وبينما تجد بعض العناصر التي تَرِد في الرواية الأصلية والتاريخية التي سردها فلافيوس موطئ قدم لها في الرواية الخرافية، فهما تختلفان في جميع المحاور المهمة تقريبًا. ويستدعي فهم السياق السياسي والاجتماعي والعلمي الذي يلفّ هذا التحول منّا أن نملك فهمًا أساسيًا لهاتين الروايتين المتباينتين.

الرواية التاريخية: الخلفية ويوسيفوس

انتهت الثورة الكبرى بفشل ذريع، وبإراقة الدماء على نطاق واسع ومفجِع، وبالموت الزّؤام الذي حلّ بالآلاف من اليهود على يد الجيش الإمبراطوري الروماني، وباسترقاق آلاف آخرين غيرهم. وكان سقوط قلعة متسادا، الذي يُحتمل أنه سُجِّل في العام ٧٣ للميلاد، هو آخر فصول تلك الثورة التي كان مصيرها الفشل المحتوم. وتشكّل الرواية الخرافية التي تسرد ما وقع في متسادا (Ben-Yehuda 1995; Paine 1994; Shargel 1979; Zerubavel 1995) بقيةً مباشرةً من بقايا تلك الحقبة. فلا يمكن الوقوف على فهم حقيقي لبعض من العناصر الأساسية التي تَسِم الثقافة اليهودية الإسرائيلية الحديثة – ولا سيما المسائل المتصلة بالهوية القومية والذاتية – واستخلاصه دون فهم هذا العهد الذي اكتنفته المآسي وسطّر البطولات.

وليس هناك سوى مصدر وحيد ألفيناه بين أيدينا حول متسادا، وهو الكتابات التي خطّها يوسيفوس فلافيوس بيده. ويذكر يوسيفوس أن جوستوس الذي ينحدر من طبريا ألَّف رواية تاريخية حول الحرب التي خاضها اليهود، بيْد أنه لم يُكتب البقاء لأي نسخة من هذا المؤلَّف. ولذلك، يصبح يوسيفوس "خط الأساس" المتاح حصرًا لفهم ما حدث.

وُلد يوسف بن ماتيتياهو، الذي عُرف فيما بعد باسم يوسيفوس فلافيوس، في القدس في العام ٣٧ للميلاد لأُسرة كهنوتية. ويقول يوسيفوس إنه لم يكن مؤيدًا متحمسًا للثورة الكبرى. ومع ذلك، ففي الوقت الذي نشبت فيه هذه الثورة بالفعل، في العام ٦٦ للميلاد على وجه التقريب، فقد صار قائدًا لمنطقة الجليل، حيث تولى زمام مسؤولية الذّود عنها. وفي العام ٦٧ للميلاد، سقطت قلعة يوتاباتا (يودفات) في الجليل. وقد راود بضعة رجال ممن كُتِبت لهم النجاة، بمن فيهم يوسيفوس، التفكير في الإقدام على الانتحار. وحالف النجاح يوسيفوس في خداع الرومان، حيث بقي هو وناجٍ آخر على قيد الحياة. فقد أقنع يوسيفوس الناجي الآخر بالاستسلام للرومان بدلًا من أن يقتل الواحد منهما الآخر، وعندما التقى يوسيفوس، الذي لم يكن ثمة شك في أنه رجل يملك مهارة الإقناع، بفسبازيان، وهو قائد القوات الرومانية التي احتلت يوتاباتا، نجح في إقامة علاقة ملفتة للاهتمام معه. فمن جملة أمور، يسود الافتراض بأن يوسيفوس تنبّأ بأن فسبازيان سوف يصبح إمبراطور روما. وبالفعل، فقد أمسى تيتوس فلافيوس فسبازيان إمبراطورًا، ودام حكمه من العام ٦٩ حتى العام ٧٩ للميلاد. وارتحل يوسيفوس إلى روما حيث أُسبِغ عليه اسم روماني، وبات مواطنًا رومانيًا ومؤرخًا رسميًا. وما يزال السؤال الذي يتناول الهوية اليهودية التي حملها يوسيفوس في روما (أو ما تبقّى منها، إن بقيت منها بقية) لمّا يجد إجابة عنه.

ومن المحتمل أن الرواية التاريخية التي سردها يوسيفوس تأثّرت بمجموعة معقدة من المصالح. فعدد ليس بالقليل من اليهود ينظرون إليه على أنه خائن وانتهازي ذو وجهين. فبصفته مؤرخًا تابعًا للرومان، ألَّف يوسيفوس تاريخًا من شأنه أن ينال رضا أسياده. وبصفته يهوديًا، كان لزامًا عليه أن يتكيّف مع بعض المسائل التي أقضّت مضجعه حيال هويته، ناهيك عن الضرورة الجلية التي أملت عليه أن يسوّغ أفعاله. وبالتالي فليس هناك من أمر في غاية البساطة حينما يتعلق الأمر بيوسيفوس.

لم يكن يوسيفوس موجودًا بنفسه أثناء الحصار الذي ضربه الرومان على متسادا، وربما يستند سرد الأحداث الذي يسوقه إلى التقارير (التعليقات) والمفكّرات اليومية التي كتبها قادة الحرب الرومان الذين شاركوا في إنفاذ الحصار على متسادا، أو كلا هذين المصدرين معًا. وينبغي لنا أن نتوخى الحذر والحرص عندما نحتكم إلى رواية يوسيفوس، بحيث لا نبتعد عن النص الذي يضعه إلا إذا دعتنا أسباب توجب علينا ذلك. فعلى سبيل المثال، يجب النظر إلى استشهاده بالخطابين الأخيرين اللذين ألقاهما بن يائير بعين الحذر لأنه لم يكن موجودًا هناك ولم يكن اختراع آلة التسجيل الصوتي قد أبصر النور إلا بعد ألف عام من ذلك العهد. ومع ذلك، كان يوسيفوس على معرفة رصينة بالثقافة وكان في وسعه أن يستشفّ التعبيرات التي كان من الممكن أن يتألّف الخطابان المذكوران منها.

من المحتمل أن الرواية التاريخية التي سردها يوسيفوس تأثّرت بمجموعة معقدة من المصالح. فعدد ليس بالقليل من اليهود ينظرون إليه على أنه خائن وانتهازي ذو وجهين. فبصفته مؤرخًا تابعًا للرومان، ألّف يوسيفوس تاريخًا من شأنه أن ينال رضا أسياده. وبصفته يهوديًا، كان لزامًا عليه أن يتكيّف مع بعض المسائل التي أقضّت مضجعه حيال هويته، ناهيك عن الضرورة الجلية التي أملت عليه أن يسوّغ أفعاله.

فلولا يوسيفوس، لتلاشى كل ما بلغ علمنا بتلك الحقبة والأحداث المتصلة بها، ولما "كان" لمتسادا من وجود. ولولا يوسيفوس، "لاختُزل تاريخ القرنين الأخيرين اللذين شهدهما عهد الهيكل الثاني في صفحات قليلة – ولكان جزء لا يُستهان به من ذلك العهد من نسج الأساطير" (Aberbach 1985: 25). وبناءً على ذلك، فنحن نعتمد النص الذي وضعه يوسيفوس بوصفه خط أساس تاريخيا. ولا يبدو أن الاحتمال الذي يقول إن يوسيفوس كذب على أسياده الرومان، وعلى أولئك الذين شاركوا في تلك الأحداث بالفعل، وضلّلهم واختلق حصارًا لم يُضرب مطلقًا أو أناسًا لم يكن لهم وجود قطّ أو حدثًا لم تقم له قائمة على الإطلاق، ليس له من أساس متين يستند إليه. فالرواية التي يطرحها يوسيفوس كُتبت في عهد قريب عاصر وقوع هذه الأحداث، وهو الوصف الحصري المتاح لتلك الأحداث المصيرية. ومن الناحية التاريخية، تُعَدّ هذه الرواية "الحقيقة" المفصّلة الوحيدة التي نملكها حول الثورة الكبرى اليهودية وحول متسادا. وليس هذا بالمقام الذي نحكم فيه على مدى دقة كتابات يوسيفوس ولا على مدى صحتها أو نختبرها أو نطعن فيها.

متسادا: الموقع

متسادا عبارة عن قلعة مقامة على قمة جبل يقع على مسافة تقارب ١٠٠ كيلومتر جنوب شرق القدس (Livne 1986). واسم هذا الجبل والقلعة باللغة العبرية هو "متسادا"، التي تعني حرفيًا حصنًا، أو قلعةً أو معقلًا. والنسخة اللفظية لكلمة "متسادا" في الإغريقية هي "مسادا" (Simchoni 1923: 513). و"مسادا" تعني الموقع الشاهق. وتقع هذه القلعة المنكوبة على مقربة من البحر الميت، وسط أرض يباب موحشة، ويصعب الوصول إليها. ولو وقف المرء على قمة هذه الهضبة الجدباء والهامدة التي تتّسم باتساعها وبلونها الذي يميل إلى الصفرة وقابل المنظر الطبيعي الذي يلفه الصمت والوحشة ويشبه القمر في هيئته، تستحضر نسمات الصحراء الباردة في ساعات الصباح الباكر في نفسه جوًا أقرب ما يكون إلى الروحانية، حيث يوقظ فيها شعورًا غاية في الغرابة. ويبدو أن هناك طيفًا من وجود مما وراء الطبيعة حاضر على قمة هذا الجبل.

ويتآلف هذا الموقع والجو الاستثنائيين معًا ويثيران حالة ذهنية لها قدرتها على الإيحاء. ويبدو أن الرواية التي تحكي قصة ثورة اليهود الكبرى التي كان مصيرها الفشل المحتوم، والموت المأساوي الذي حلّ بالمتمردين، تتناغم تناغمًا تامًا مع الأرض المقفرة والموحشة التي تلوح القلعة الخاوية، التي تتربع على قمة الجبل، في وسطها. ويبدو أن بيئة متسادا المادية التي تبعث الكآبة في النفس تردّد صدى البيئة التاريخية التي تميط اللثام عن خبايا الثورة الدامية التي انتهت بهذا الدمار الهائل.

الرواية التاريخية[٢]

ربما يستهلّ المرء بتحديد تاريخ الثورة الكبرى في العام السادس للميلاد، حينما سعى الرومان إلى إجراء اكتتاب [تعداد] للسكان الذين كانوا يقطنون في مقاطعة يهودا. وكان من بين المعارضين الرئيسيين الذين لم يوافقوا على إجراء هذا الاكتتاب يهوذا الجماليّ [نسبة إلى جمالا في الجولان] (والذي يُعرف أيضًا بيهوذا الجليليّ)، الذي أذكى هو وصادوق الفريسي نار المقاومة. فقد وضع الاثنان "الفلسفة الرابعة" ونشراها. وكانت الفلسفات الثلاث الأولى قد اعتنقها الأسينيون والصدوقيون والفريسيون، طائفةً بعد الأخرى. وقد ركّزت "الفلسفة الرابعة" في مضمونها على قيمة الحرية، ولم يُبدِ موالوها وأنصارها الولاء إلا للرب. وفي الوقت الذي يُحتمل فيه أن يهوذا قُتل على يد الرومان، فلم

نقف على أول ذكر لمصطلح "السيكاري" عند يوسيفوس في سياق الأحداث التي وقعت في الفترة الممتدة بين العامين ٥٢ و٦٢ للميلاد. وكلمة "السيكاري" مشتقة من كلمة "سيكا"، التي تشير في معناها إلى خنجر صغير يُفترض أن جماعة السيكاري كان يحملونه تحت أثوابهم ويستخدمونه في مهاجمة أولئك الذين كانوا يرون أنهم معارضون لهم في القدس واغتيالهم.

يكن الفناء مصير "الفلسفة الرابعة". بل واصلت هذه الفلسفة الانتشار في جميع الأنحاء، وربما أصبحت هي الأيديولوجيا التي اعتنقتها جماعة من الثوار الأصوليين اليهود، الذي عُرفوا باسم السيكاري [عُصبة حملة الخناجر]، الذين عُرف عنهم تطلُّعهم وتوقهم إلى الحرية ومعارضتهم التامة لحكم الإمبراطورية الرومانية (Feldman 1984: 655–67).

ونقف على أول ذكر لمصطلح "السيكاري" عند يوسيفوس في سياق الأحداث التي وقعت في الفترة الممتدة بين العامين ٥٢ و٦٢ للميلاد. وكلمة "السيكاري" مشتقة من كلمة "سيكا"، التي تشير في معناها إلى خنجر صغير يُفترض أن جماعة السيكاري كان يحملونه تحت أثوابهم ويستخدمونه في مهاجمة أولئك الذين كانوا يرون أنهم معارضون لهم في القدس واغتيالهم. وانطوت التكتيكات التي اعتمدوها على الترويع والتهديد باللجوء إلى العنف ضد معارضيهم السياسيين والأيديولوجيين، كما تورطوا في أعمال متفرقة من الإرهاب، حيث كانت الاغتيالات السياسية من جملتها. فبهذه الطريقة قتلوا يوناتان بن حنان، رئيس الكهنة في القدس. كما اختطفوا الرهائن الذين بادلوهم مع أبناء جلدتهم الذين وقعوا في قبضة الرومان. ويصف يوسيفوس الموقف الذي تبنّته جماعة السيكاري تجاه السكان المحليين الذين لم يُظهروا العداوة لحكم الرومان على أنه كان "كما لو كانوا أعداءهم ... حيث سلبوهم ما كان في حوزتهم، وشتّتوا مواشيهم، وأضرموا النيران في بيوتهم" (Josephus 1981: 598).

واستولت جماعة السيكاري، التي كان مناحيم يتزعّمها، على قلعة متسادا وأسلحتها في العام ٦٦ للميلاد. ثم يمّموا وجوههم شطر القدس، حيث استخدموا تلك الأسلحة في غزو مركز المدينة.[٣] وأضرموا النار في بيت حنانيا، كبير الكهنة، وأحرقوا الأرشيف المركزي الذي كانت تُحفظ فيه الوثائق التجارية والصكوك

قلعة متسادا المفترضة.

والإشعارات. كما أقدموا على قتل بعض اليهود والجنود الرومان الذين استسلموا لهم. وقد كانت هذه الأعمال إيذانًا باندلاع شرارة الثورة الكبرى وانقسام السكان اليهود إلى طائفتين، هما طائفة الغيورين (الزيلوت) وطائفة "المعتدلين".

وبعد مقتل مناحيم على يد أولئك الذين كانوا يعارضون جماعة السيكاري، حلّ محله أليعازر بن يائير، وهو من أقارب مناحيم، و"تنحدر أصوله من ... يهوذا الذي أقنع ... اليهود ... برفض الإذعان لفرض الضرائب" (المصدر السابق: ٥٩٨)، وقاد فرار جماعة السيكاري إلى متسادا. ويروي يوسيفوس أن بن يائير "تمثّل دور الطاغية في متسادا"، حيث اضطلع بدور "قائد" "السيكاري" (المصدر السابق: ٩، ٤٩٢).

وفي أعقاب سقوط القدس، أُرسل لوسيليوس باسوس إلى يهودا بصفته مندوبًا وواصل قمع ذيول الثورة اليهودية الكبرى، فاستولى على قلعة هيروديون، ثم ضرب الحصار على قلعة مكاور، حيث دارت رحى المعارك حامية الوطيس حتى استسلمت القلعة. وسار باسوس، بعد أن حقق هذا النجاح، إلى غابة جاردين، حيث

بينما يساور الغموض يوسيفوس في بعض الأحيان في حديثه عن الناس في أماكن بعينها، فإن استخدامه لكلمة "السيكاري" حينما يصف الحصار المضروب على متسادا يتّسم بقدر كبير من الثبات، وربما يُعَدّ هذا الوصف الأكثر ثباتًا في كتابه برمته (انظر: Dvir 1966) فعلى سبيل المثال: "كانت هناك قلعة على قدر عظيم من المَنَعة وغير بعيدة عن القدس ... وتُسمى متسادا. وأولئك الذين كانوا يُسمّون السيكاري كانوا قد استولوا عليها في وقت مضى"

كان اللاجئون الذين نزحوا من القدس ومكاور يختبئون فيها. وفي المعركة التي أعقبت ذلك، قُتل كل اليهود في غابة جاردين (المصدر السابق: ٥٩٥–٥٩٧). وبعد موت لوسيليوس باسوس،[٤] خلفه فلافيوس سيلفا في منصب النائب عن يهودا (المصدر السابق: ٢٩٨). وحشد فلافيوس جيشه[٥] ونظّم قواته التي كانت تتمركز في بقاع مختلفة بعد أن تبين له أن "كل ما تبقى من أرجاء البلاد دانت له في هذه الحرب، وأنه لم يكن هناك سوى معقل وحيد لم يزل متمردًا، وأطلق حملة ضده. وكانت هذه القلعة تحمل اسم متسادا" (المصدر السابق: ٥٩٨). وبذلك، لم يكن حصار متسادا قد ضُرب عليها بعد سقوط القدس في صيف العام ٧٠ للميلاد على الفور.

وبينما يساور الغموض يوسيفوس في بعض الأحيان في حديثه عن الناس في أماكن بعينها، فإن استخدامه لكلمة "السيكاري" حينما يصف الحصار المضروب على متسادا يتّسم بقدر كبير من الثبات، وربما يُعَدّ هذا الوصف الأكثر ثباتًا في كتابه برمته (انظر: Dvir 1966) فعلى سبيل المثال: "كانت هناك قلعة على قدر عظيم من المَنَعة وغير بعيدة عن القدس ... وتُسمى متسادا. وأولئك الذين كانوا يُسمّون السيكاري كانوا قد استولوا عليها في وقت مضى" (Josephus 1981: 537).

وشيّد الجيش الروماني جدارًا يطوّق متسادا ويحيط بها من أجل الحيلولة دون هرب المحاصرين فيها. كما أقاموا ممرًا منحدرًا يفضي إلى القلعة على الجانب الشرقي من الجبل. واستخدم الجنود الرومان مِدقّات الأسوار على هذا الممر المنحدر لدقّ السور المحيط بالقلعة ونقضه، حيث اخترقوا جانبًا منه ودمروه. وسارعت جماعة السيكاري التي كان أفرادها قابعون في القلعة إلى تشييد سور آخر، وهو سور ليّن هذه المرة ويتألف من الخشب المرصوص بالطين، حيث يمكنه أن يمتص وقع الضربات التي توقعها الآلات الحربية عليه دون أن يتداعى. وأضرم الجنود الرومان النار في السور الثاني ودمّروه، ومما لا شك فيه أن ذلك كان إرهاصًا باقتراب النهاية بالنسبة لجماعة السيكاري في متسادا (Netzer 1991). وقد كانت الخيارات المتاحة أمامهم واضحة. ففي وسعهم (أ) أن يحاولوا الهرب، (ب) أو القتال حتى ملاقاة قدرهم المحتوم، (ج) أو الاستسلام، (د) أو الإقدام على انتحار جماعي. وربما نظر هؤلاء إلى الخيار الأول على أنه لا أمل فيه. وكان البديل الثالث يعني بالنسبة لهم استرقاق نسائهم وأبنائهم وموتًا زؤامًا يتربص برجالهم. ومن بين ٩٦٧ إنسانًا كانوا في متسادا، ربما لم يكن سوى بضع مئات منهم قادرين على القتال، بينما كان معظم من تبقى من النساء والأطفال. ومن الممكن أن ذلك قلّص من جاذبية الخيار الثاني. وكان أليعازر بن يائير يميل إلى الخيار الرابع، فقد ألقى على مسامع السكان القابعين تحت الحصار خطابين كان يبتغي منهما إقناعهم بقبول هذا الخيار. فقتل أفراد جماعة السيكاري الواحد منهم الآخر وأزهقوا أرواحهم بأيديهم.

ولا تأتي الرواية التي يسوقها يوسيفوس على ذكر الدور الذي اضطلعت به النساء والأطفال في هذا القرار. وبالنظر إلى أن حالة التردد التي أعقبت الخطاب الأول الذي ألقاه بن يائير تُعزى إلى "الجنود"، يبدو أنه من المأمون أن نفترض أن تلك القرارات ربما اتخذها الرجال من أعضاء الطبقة الاجتماعية التي فرضت هيمنتها على متسادا (وهي جماعة السيكاري)، وأن الرجال قتلوا بعضهم بعضًا. ولم يترك السيكاري أي خيار أمام أي متخلّف محتمل، وكان يتعين على الناجين السبعة – وهم امرأتان وخمسة أطفال – أن ينجوا بحياتهم عن طريق الاختباء: "ومع ذلك، فقد كانت هناك امرأة طاعنة في السن، وامرأة أخرى كانت قريبة لأليعازر ... مع خمسة أطفال، كانوا قد تخفّوا في كهوف في باطن الأرض ... واختبأوا فيها عندما كان الآخرون يزمعون قتل

كانت متسادا جزءًا من ثورة فاشلة هبّت في وجه الغزاة الرومان. ولم يكن سقوط قلعة متسادا سوى الضربة القاصمة في السياق الأعمّ الذي واكب قمع هذه الثورة. ويلمّح يوسيفوس إلى أن قلة قليلة من المتعصبين هم من أغروا اليهود بالمشاركة في التمرد الذي لم يكن من ورائه طائل.

بعضهم بعضًا. وبلغ عدد هؤلاء تسعمائة وستين ..." وما من شك في أن الوصف الذي يسوقه يوسيفوس للناجين المختبئين يلمّح إلى عنصر القسر والإكراه. فعندما دخل الرومان إلى متسادا، "سمعت المرأتان هذا الضجيج وخرجتا من الكهف الذي تخفّتا فيه تحت الأرض، وأطْلعوا الرومان على ما جرى، مثلما جرى، و ... وصفتا ... ما قيل وما حصل، والطريقة التي حصل فيها." (Josephus 1981: 603).

وقد اخترق الرومان السور ووقع الانتحار في مساء يوم ١٥ نيسان من العام ٧٣ للميلاد وليلته.[٦] وحينما دخل الرومان متسادا في اليوم التالي، كان صمت مطبق في استقبالهم.

المحاور الرئيسية في رواية متسادا التاريخية

تنطوي الرواية الذي يسردها يوسيفوس على المحاور التالية:

١. كانت متسادا جزءًا من ثورة فاشلة هبّت في وجه الغزاة الرومان. ولم يكن سقوط قلعة متسادا سوى الضربة القاصمة في السياق الأعمّ الذي واكب قمع هذه الثورة. ويلمّح يوسيفوس إلى أن قلة قليلة من المتعصبين هم من أغروا اليهود بالمشاركة في التمرد الذي لم يكن من ورائه طائل. ويميل بعض الباحثين (من أمثال مناحيم شتيرن في مؤلفاته) إلى رفض هذا الإيحاء، ويؤكدون على أن الثورة اتسمت بشعبيتها وبنطاقها الواسع. ومن سوء حظ اليهود في ذلك العهد أن الصورة العسكرية كانت بائسة. فالإمبراطورية الرومانية التي أبصرت النور في القرن الأول للميلاد كانت قد بلغت أوج قوتها، وكانت تمتد من بريطانيا إلى بلاد ما بين النهرين وتبسط سيطرتها على ما يقرب من ثلاثين فيلقًا بجنودها المدجّجين بالسلاح والمزودين بما يفيض عن حاجتهم من المؤونة والمتأهبين لخوض القتال، وهذه قوة عسكرية مهيبة في مقاييس ذلك الزمان. وفي الوقت الذي اندلعت فيه شرارة الثورة الكبرى، كان المندوب القنصلي الروماني في سورية يفوق غيره في أهميته بسبب التهديد الذي شكّله التحدي العسكري القادم من التخوم الجنوبية الشرقية للإمبراطورية الرومانية. وكان لهذا المندوب أربعة فيالق في متناول يده، إلى جانب الفيالق الثلاثة التي كانت تتمركز في مصر وغيرها مما كان يمكن جلبه من بقاع أخرى – بل وجلبه بالفعل – إليه. وليس في وسع المرء أن يستشفّ المنطق والمسوّغ اللذين يقفان وراء محاولة الوقوف في وجه هذه القوة الحربية بسهولة، ولا سيما دون الاستفادة من بعض التحالفات السياسية والعسكرية على الأقل.

٢. خلال هذه الحقبة، كان السكان اليهود المحليون منقسمين إلى عدة طوائف أيديولوجية متباينة. وقد واظب يوسيفوس، في الرواية التي يبسطها حول متسادا، على استخدام مصطلح "السيكاري" على نحو ثابت ودائب لوصف المتمردين اليهود فيها (Feldman 1984: 655–67; Horsley and Hanson 1985; Stern 1973).

٣. استولت قوات السيكاري على قلعة متسادا بالقوة في العام ٦٦ للميلاد، قبل انطلاق شرارة الثورة الكبرى (Josephus 1981: 491).

٤. تورطت جماعة السيكاري في القدس في ارتكاب قدر هائل من أعمال العنف التي طالت اليهود وغيرهم، حيث أجبروا على الرحيل عن هذه المدينة والانتقال إلى متسادا قبل وقت طويل من الحصار الذي ضربه الرومان عليهم فيها. وفي الوقت الذي لا يسع فيه المرء أن يستبعد الاحتمال البعيد الذي يقول إن أفرادًا آخرين من غير جماعة السيكاري

وبناءً على ذلك، فبينما كانت تدور رحى المعارك حول القدس (ويودفات، ومكاور)، والتي كانت تتألف من مناوشات وغارات وغزوات، فلا يَرِد ذكر أي من هذه الوقائع في سياق الحصار الذي ضربه الرومان على متسادا. وبعبارة أخرى، لم تكن ثمة "معركة" قد نشبت حول متسادا. فالمجهود الحربي الذي بذله الرومان كان أقل في وضوحه من مجهودهم الهندسي، ولكن حتى ذلك لم يكن استثنائيًا حسب المقاييس الرومانية.

حوصروا على قمة جبل متسادا، فلا تؤيد الرواية التي يضعها يوسيفوس هذا التفسير. وفضلًا عن ذلك، كان من الواضح أن جماعة السيكاري هي الجماعة المهيمنة والمسيطرة هناك.

٥. يذكر يوسيفوس أنه حينما أراد شمعون بن غيورا أن ينضم إلى جماعة السيكاري على قمة جبل متسادا، فإنهم قد "جاؤوا إلى أولئك اللصوص الذين استولوا على متسادا .. ولم يسمحوا له إلا بأن يحضر مع النساء اللواتي أحضرهن معه إلى الجانب الأسفل من القلعة، حيث كانوا يسكنون في الطبقة الأعلى منها" (المصدر السابق: ٥٤١). ولا يخفى أن جماعة السيكاري لم يكونوا يُحسنون وفادة غيرهم ولا ضيافتهم.

٦. كانت جماعة السيكاري تُغِير على القرى القريبة منها. وقد وقعت إحدى الغارات الوحشية عندما:

> نزلوا عن الجبل مع هبوط الليل، دون أن يحسّ بهم أحد ... واجتاحوا مدينة صغيرة تسمى عين جدي ... وحالوا ... بين السكان الذين كان في وسعهم أن يقفوا في وجههم ... وبين تسليح أنفسهم وقتالهم. و ... شتتوا شملهم ... وطردوهم من المدينة. وبالنسبة لأولئك الذين لم يستطيعوا الفرار، وهم من النساء والأطفال، فقد أزهقوا أرواح ما يربو على سبعمائة منهم (المصدر السابق: ٥٣٧).

وبعد ذلك، حمل المغيرون من أفراد جماعة السيكاري المؤن من عين جدي معهم إلى متسادا.

٧. لا ينبس يوسيفوس ببنت شفة عن مدة الحصار الذي ضُرب على متسادا. ولذلك، فقد اقتُرِحت أطر زمنية متباينة. ومن الجلي أن الحصار لم يُستهل بعد خراب القدس في العام ٧٠ للميلاد على الفور. فبادئ ذي بدء، تعرضت قلعتا هيروديون ومكاور للغزو، ثم توفي باسوس وخلفه فلافيوس سيلفا في منصبه، حيث كان يتعين عليه أن يجمع شعث قواته، ولم يطلق هجومه النهائي على قلعة متسادا إلا بعد أن تحقق له ذلك. ويتوافق الباحثون فيما بينهم على أن حصار متسادا وسقوطها لم يستغرق سوى بضعة أشهر، وربما امتد ذلك من شتاء العام ٧٢–٧٣ للميلاد حتى الربيع التالي، وهو ما لم يزِد على أشهر أو أسابيع قليلة (Feldman 1984: 789–90). وفي الواقع، تبيّن الدراسة المثيرة للإعجاب والدقيقة والموثوقة التي أعدّها رووث (Roth):

> على وجه الإجمال، يُحتمل أن حصارًا دام زهاء تسعة أسابيع هو الحد الأقصى الذي بلغه، وأن حصارًا قارب أربعة أسابيع هو الحد الأدنى، وأن حصارًا ضُرب على مدى سبعة أسابيع هو الفترة الأكثر احتمالًا للحصار الذي فُرض على متسادا. وتتناسب الفرضية التي ترى أن حصارًا قارب أمده سبعة أسابيع تمامًا مع التاريخ الذي يقرّره يوسيفوس لسقوط القلعة، بصرف النظر عن التقويم المستخدم في هذا الشأن (Roth 1995: 109).

ويؤيد غيل (Gill 1993) هذا الاستنتاج، حيث يقترح أن الممرّ المنحدر العظيم الذي شُيِّد على المنحدر الغربي كان يقوم في أساسه على نتوء طبيعي ضخم من الصخور. ولو كان الأمر كذلك، فإن الجيش الروماني لم يشيّد الممر المذكور من سفح الجبل، بل هم لم يزيدوا على أن أضافوا الممر الفعلي على قمة ذلك النتوء الطبيعي – وهو جهد يقلّ في مشقته عن الافتراض الذي كان سائدًا من قبل بشوط بعيد.

٨. تأتي الرواية التي يسوقها يوسيفوس حول حصار القدس ومكاور على ذكر جولات من القتال والغارات التي خاضها

يبدو أن عزيمة جماعة السيكاري وشجاعتهم في ارتكاب الانتحار الجماعي قد حظيت باحترام الرومان وأثارت استغرابهم. ولكن يوسيفوس لا يجترح هذ القفزة التحليلية من "الاحترام" إلى "البطولة"، وإنما يجري بناء هذه الصورة بناءً اجتماعيًا. وفي الواقع، يصف يوسيفوس جماعة السيكاري الذين أقدموا على الانتحار بأنهم "رجال بائسون، لقد كانوا كذلك بالفعل!"

المدافعون ببسالة وشراسة في وجه الرومان. ولا تنبس روايته ببنت شفة عن هجمات دفاعية على الإطلاق. ويبدو أن مواجهات خطيرة لم تقع مع الرومان في متسادا. وكان يوسيفوس يبدي اهتمامًا جليًا في إظهار البطولة التي سطّرها اليهود لأنها كانت تعني أنها فاقت بطولة الجيش الروماني الذي غزاهم في عقر دارهم. ولا يخلو تخلّف يوسيفوس عن ذكر أي مقاومة ذات بال خاضتها جماعة السيكاري من الأهمية. صحيح أن تضاريس جبل متسادا كان من شأنها أن تجعل من هذه الهجمات أمرًا صعبًا، بيد أن ذلك لم يكن مستحيلًا. وبناءً على ذلك، فبينما كانت تدور رحى المعارك حول القدس (ويودفات، ومكاور)، والتي كانت تتألف من مناوشات وغارات وغزوات، فلا يَرِد ذكر أي من هذه الوقائع في سياق الحصار الذي ضربه الرومان على متسادا. وبعبارة أخرى، لم تكن ثمة "معركة" قد نشبت حول متسادا. فالمجهود الحربي الذي بذله الرومان كان أقل في وضوحه من مجهودهم الهندسي، ولكن حتى ذلك لم يكن استثنائيًا حسب المقاييس الرومانية.

وينبغي النظر إلى حذف أي ذكر للمعارك التي دارت حول قلعة متسادا على نحو يثير الحيرة في النفس بالتوازي مع ثلاثة معطيات أخرى:

(أ) يبيّن يوسيفوس أن القوات التي كان شمعون بن غيورا على رأسها انضمت إلى "اللصوص الذين كانوا قد استولوا على متسادا" وأن تلك القوات بشقيها "عاثت الخراب في البلاد ... حول متسادا ودمرتها" (Josephus 1981: 541; Horsley and Hanson 1985: 214). ومع ذلك، فلم يكن "اللصوص" المتحصنون في متسادا لينضموا إلى قوات شمعون "لأسباب أسمى"، لأنهم كانوا قد ألفوا السكن في متسادا و"كانوا يخشون من الابتعاد عما كان يُعَدّ مخبأهم." ولم يتقاسم شمعون ورجاله هذه الخشية وواصلوا خوض معاركهم، التي وضعت حدًا لسيرتهم في نهاية المطاف في حصار القدس، حيث خاضوا القتال ضد الرومان (إلى جانب خصومهم من الطوائف اليهودية، ومن جملتها طائفة الغيورين). وألقى الرومان القبض على شمعون، وأحضروه إلى روما وقتلوه فيها.

وتعزز هذه المعلومة الفكرة التي تقول إن المتمردين الذين تموقعوا في متسادا كانوا يفتقرون إلى "الروح القتالية"، حيث تترسخ هذه الفكرة بما لم يحدث: فقد كان في وسع القوات المحاربة على جبل متسادا أن تقتل الأفراد غير المحاربين، ثم تخرج لملاقاة الرومان والاشتباك معهم مهما كانت النتائج. ولكنهم بدلًا من أن يرجّحوا كفة هذا الخيار قتلوا بعضهم بعضًا. ومما يلفت الانتباه في هذا المقام أن مدونة التاريخ اليهودي (Joseippon 1981) حرّفت رواية متسادا ووضعتها في هذا السيناريو بالتحديد. وفي الواقع، يشير زيتلين (Zeitlin 1967: 262) وهوينيغ (Hoenig 1970: 14; 1972: 112) إلى أن جماعة السيكاري لم تُقْدِم على القتال.

ويقدم التاريخ العديد من الشواهد على المعارك البطولية "التي أُبيدَ فيها المقاتلون الذين خاضوها عن بكرة أبيهم" (Philip 1994, Perrett 1991, Perrett 1995). ومن الأمثلة على هذه المعارك المعركة الأخيرة التي خاضها ليونيداس وجاله الإسبرطيون الثلاثمائة في عبورهم من ترموبيل في العام ٤٨٠ قبل الميلاد. وحتى عند الاحتكام إلى مثال يهودي حصري لغايات القياس والاستدلال، فحينما بات يتعين على جماعة السيكاري الاختيار، فقد اختاروا الانتحار دون أن يحذوا حذو شمشون التوراتي، الذي أودى بحياة أعدائه معه نفسه.

لم يكن أفراد جماعة السيكاري الذين كانوا متحصنين على جبل متسادا، والذي أبدوا مهارتهم الفذة في شن الغارات على القرى القريبة منهم، محاربين موهوبين بوجه خاص، بل تفادوا خوض المعركة في الواقع. ومن المحتمل أنهم كانوا يعتقدون بأن الجيش الروماني لم يكن في استطاعته أن يصل إليهم مطلقًا، وبالتالي لم يدُر في خلدهم أنه كان يتعين عليهم أن يقاتلوهم.

ويحمل إسباغ حالة "المعركة الأخيرة" على جماعة السيكاري في متسادا في طياته نوعًا محددًا من أنواع البطولة، حيث يخوض المرء القتال حتى آخر قطرة من دمه، أو يسعى إلى إلحاق أكبر قدر من الضرر يستطيع أن يلحقه بعدوه إذا كان الموت محتومًا ولا مناص منه: "تشكّل الفكرة التي يدفع فيها الرجال ثمنًا باهظًا يتمثل في حياتهم العزيزة عليهم محطّ احترام وتبجيل في معظم حالات التاريخ القومي، كما تُعَد الأساس الذي ينبني عليه جانب لا يستهان به من التقاليد الحربية" (Perrett 1991: 7). ومن المؤكد أن رواية متسادا التي يسرد يوسيفوس وقائعها لا ترقى إلى منزلة "المعركة الأخيرة"، ولا يمكن أن تُعَد كذلك في واقع الأمر.

(ب) يلاحظ يوسيفوس أن الرومان، بعد أن دخلوا متسادا واكتشفوا الجثث، "لم يكن في وسعهم [سوى] أن يُبدوا استغرابهم من شجاعة القرار الذي اتخذوه [جماعة السيكاري]، ومن احتقارهم الذي لم يكن يتزعزع للموت والذي أبداه عدد ليس بالقليل منهم، عندما أقدموا على هذا التصرف ..." (Josephus 1981: 603). ويبدو أن عزيمة جماعة السيكاري وشجاعتهم في ارتكاب الانتحار الجماعي قد حظيت باحترام الرومان وأثارت استغرابهم. ولكن يوسيفوس لا يجترح هذ القفزة التحليلية من "الاحترام" إلى "البطولة"، وإنما يجري بناء هذه الصورة بناءً اجتماعيًا. وفي الواقع، يصف يوسيفوس جماعة السيكاري الذين أقدموا على الانتحار بأنهم "رجال بائسون، لقد كانوا كذلك بالفعل!" (المصدر السابق).

(ج) تفترض ماغنيس (Magness) في كتابها أنه لو اندلعت "المعارك" حول متسادا، لكان من الممكن أن تنحصر في المرحلة الأخيرة من الحصار فحسب. وتشير ماغنيس إلى "اللغز الذي يشكّله غياب رؤوس المقذوفات من أطلال متسادا" (Magness 1992: 66)، وتبيّن في معرض وصفها للمرحلة المتأخرة من الحصار أن:

> القوات الرومانية جرّت، تحت غطاء من القصف المدفعي، مدقّة الأسوار على الممرّ المنحدر واخترقوا السور ... وأضافت قوات الإمداد من الرماة الرومان غطاءً من القصف لتأمين الآلات بينما القوات تصعد الممر المنحدر. ومن المؤكد أن الغيورين ردّوا على القصف بكل ما وقعت عليه أيديهم، بما في ذلك الأقواس والسهام التي صنعوها خلال الأيام الأخيرة من حصار متسادا ... (Magness 1992: 67).

ومن المحتمل أن الزخم الرئيسي الذي شهده حصار متسادا ومعركتها لم تأتِ به الوحدات المهيبة التي يضمّها الفيلق الروماني العاشر، بل جاء به جنود قوات الإمداد التي تقلّ عنها في مكانتها:

> تشير رؤوس السهام اللينة في متسادا إلى وجود فرقة رئيسية من جنود قوات الإمداد في متسادا أو إلى أن أفراد جماعة الغيورين كانوا قد سلّحوا أنفسهم بالأقواس والسهام على شاكلة قوات الإمداد، أو إلى كلا هذين الأمرين معًا ... ومما يثير الاستغراب أن المنقّبين لم يعثروا فيما يبدو على أي رأس من رؤوس المقذوفات من النوع الذي كان في وسع جنود الفيلق إطلاقه من الأقواس المفتولة ... بالمقارنة مع الوضع في جمالا ... حيث جرى اكتشاف عدد كبير من رؤوس المقذوفات (المصدر السابق: ٦٤).

وبذلك، يخلص المرء إلى استنتاج لا مفر منه، وهو أنه ليس هناك ببساطة من دليل على نشوب مقاومة معتبرة من نوع "المعركة الأخيرة" حول متسادا.

والسؤال الذي لا مفر منه هو: كيف للقصة البغيضة التي تلوح من رواية يوسيفوس أن تصبح رمزًا إيجابيًا للبطولة؟ من الجلي أنه كان لا بد من بناء الرواية الخرافية التي تعرض بين ثناياها بطولة هائلة بناءً اجتماعيًا ونشرها وتعميمها، لأنها غائبة تمامًا من الرواية التاريخية الأصلية.

ومن ثم يكمن الانطباع العام في أن أفراد جماعة السيكاري الذين كانوا متحصنين على جبل متسادا، والذي أبدوا مهارتهم الفذة في شن الغارات على القرى القريبة منهم، لم يكونوا محاربين موهوبين بوجه خاص، بل تفادوا خوض المعركة في الواقع. ومن المحتمل أنهم كانوا يعتقدون بأن الجيش الروماني لم يكن في استطاعته أن يصل إليهم مطلقًا، وبالتالي لم يدُر في خلدهم أنه كان يتعين عليهم أن يقاتلوهم. وبعدما أضحى جليًا أن النهاية باتت قاب قوسين أو أدنى، فمن المحتمل أنهم سارعوا إلى تشكيل نوع من أنواع الدفاع، وحتى مع ذلك، فقد كان هذا الدفاع غير ذي شأن وكان أوانه قد فات. وهم لم "يقاتلوا حتى آخر رمق فيهم" في نهاية المطاف، بل فضّلوا الانتحار على خوض القتال. وإذا كان هذا الاستقراء صحيحًا، فلا مندوحة من بلوغ الاستنتاج الذي ينبثق عن ذلك: لا يعكس تاريخ الحصار الذي ضربه الرومان على متسادا صورة بطولية من نوع خاص.

٩. "يقتبس" يوسيفوس مقاطع مطوّلة من الخطابين اللذين ألقاهما أليعازر بن يهودا، واللذين كان لا بد منهما لإقناع ٩٦٠ إنسانًا في قلعة متسادا بالإقدام على الانتحار. ويتمثل المعنى الضمني هنا في أن جماعة السيكاري اليهود الذين كانوا موجودين على جبل متسادا أبدوا ممانعتهم في بادئ الأمر لإزهاق أرواحهم بأنفسهم.

١٠. نجت سبع أنفُس من هذا الانتحار الجماعي. وهذه نقطة لها أهميتها، لأن تفاصيل تلك الليلة الأخيرة على جبل متسادا وردت على لسان إحدى المرأتين الناجيتين.

وبناءً على ما تقدم ذكره، فإننا عندما ننظر إلى المحاور الرئيسية التي انطوت عليها الرواية التي عرضها يوسيفوس فلافيوس عن الثورة الكبرى وعن متسادا، لا تلوح أمامنا أي لوحة ترسم ملامح البطولة في متسادا. بل على النقيض من ذلك. ترتبط هذه الرواية بقصة تمرد لا أمل منشودًا منه (وتثور التساؤلات حوله)، وبقصة فشله المدوّي وخراب الهيكل الثاني ودمار القدس، وقصة المجازر التي اقتُرفت بحق اليهود على نطاق واسع، وقصة طوائف اليهود المختلفين الذين قاتلوا بعضهم بعضًا، وقصة فعل أقدمت فيه جماعة من الإرهابيين والقتلة، تلف الشكوك روحهم القتالية، على انتحار جماعي (ولا يكاد الأمر يُعَد عملًا إيجابيًا في الديانة اليهودية).

ومن وجهة النظر الرومانية، لا بد أن حملة متسادا التي شُنَّت على جماعة السيكاري كانت إجراءً لا أهمية له عقب حرب ضروس دارت رحاها في يهودا، بل كانت عبارة عن عملية "تطهير" على نحو ما، وأمراً لا بد من إنجازه، ولكنه لم يكن ينطوي على أي شيء مميز من ناحية الإستراتيجية أو المجهود الحربي. وقد تعزز معلومة أخرى مصداقية الاعتقاد الذي سقناه أعلاه. فقد عُثر على نقشين متطابقين تقريبًا من النقوش الرومانية التي تعود في تاريخها إلى العام ٨١ للميلاد في أوربز سالفيا (التي تقع في شمال إيطاليا وجنوب أنكونا) في أواخر الخمسينات من القرن الماضي. ويصف هذان النقشان مسيرة لوشيوس فلافيوس سيلفا نونيوس باسوس. ولا يمكن العثور على أي ذكر لمتسادا في هذين النقشين (وربما لا ينبغي لنا أن نتوقع ذلك).[٧] ويُذكر أن فلافيوس سيلفا كان مسؤولًا عن "مقاطعة يهودا" الرومانية وأنه تولى قيادة فيلقين رومانيين على مدى سني مسيرته.

والسؤال الذي لا مفر منه هو: كيف للقصة البغيضة التي تلوح من رواية يوسيفوس أن تصبح رمزًا إيجابيًا للبطولة؟ من الجلي أنه كان لا بد من بناء الرواية الخرافية التي تعرض بين ثناياها بطولة هائلة بناءً اجتماعيًا ونشرها وتعميمها، لأنها غائبة تمامًا من الرواية التاريخية الأصلية.

رواية متسادا الخرافية

بدأت الرواية الخرافية التي تسرد وقائع قلعة متسادا تجد موطئ قدم لها في أوساط السكان اليهود في فلسطين الانتدابية في مستهلّ العقود الأولى من القرن العشرين، ولكنها اكتسبت زخمًا خلال حقبة العشرينيات وتبلورت بحلول مطلع الأربعينيات من القرن الماضي. وعلى الرغم من أن رواية متسادا الخرافية برمتها تتألف من رواية تقترن مع رحلة إلى قلعة متسادا وتسلّق الجبل الذي تتربع عليه – بمعنى أنها تشكّل تجربة معرفية وحسية وعاطفية – فقد يتسنى لنا أن نحدد معالم الجانب المعرفي منها بيسر وسهولة.

يمكن الوقوف على رواية متسادا الخرافية في عدد ليس بالقليل من الكتب المدرسية، وكتب التاريخ والأدلة الإرشادية والنشرات، وفي مجموعة متنوعة وكبيرة من المؤلفات الأخرى المنتشرة في ربوع إسرائيل. وقد شملت رحلات التوعية التي تنظَّم إلى قلعة متسادا المدارس والحركات الشبابية، كما اتجه الآلاف من المجندين الجدد في الجيش الإسرائيلي إلى متسادا للمشاركة في مراسم أداء القسم فيها. وقد يُقال إن هذه الخرافة نشأت عن موقف نقدي إزاء يوسيفوس فلافيوس بصفته مؤرخًا. ومن المألوف أن هذه النظرة النقدية تعيد قولبة المسائل الإشكالية، من قبيل هوية متمردي متسادا، والمجزرة التي اقتُرفت في عين جدي، و"المعركة" التي دارت رحاها في متسادا، ومدة الحصار الروماني، والانتحار والناجين منه.

ما هي رواية متسادا الخرافية؟

لو اطّلعنا على المصادر المختلفة والعديدة التي تظهر خرافة متسادا فيها ولخّصناها (Ben-Yehuda 1995)، فقد يتيسر حينئذٍ إيجاز رواية متسادا الخرافية على الوجه الآتي:

كان قادة الثورة الكبرى التي سرت شعبيتها من طائفة الغيورين (الزيلوت)، وهم أتباع إحدى الاتجاهات الأيديولوجية اليهودية التي كانت منتشرة في عهدها. وقد سحق الجيش الإمبراطوري الروماني هذه الثورة، واحتل القدس ودمّرها مع الهيكل الثاني الذي شيده اليهود. وفرّ الغيورون الذين نجوا من حصار المدينة وخرابها إلى قلعة متسادا، وهي معقل يصعب الوصول إليه ويتربع على قمة جبل بالقرب من البحر الميت. ومن هناك، انبرى الغيورون لمضايقة الرومان وشكلوا تهديدًا قرر الرومان بسببه حشد مجهودهم الحربي الهائل بغية تدمير متسادا. ونتيجةً لذلك، جمع الرومان جيشهم، وخرجوا في مسيرة

متسادا: الخرافة في خدمة العسكرتاريا.

طويلة وشاقة عبر صحراء يهودا ووصلوا إلى متسادا. وهناك، أحاطوا بالقلعة وضربوا عليها الحصار. وبعد ثلاثة أعوام من المعركة البطولية التي خاضتها ثلة من الغيورين في وجه الجيش الروماني العاتي، أدرك الغيورون القابعون على جبل متسادا أنهم كانوا في وضع ميؤوس منه. وقد واجهوا مستقبلًا قاتمًا: فإما أن يلقوا حتفهم على يد الرومان، أو أن يتحولوا إلى عبيد. وخاطب القائد أليعازر بن يائير أتباعه وأقنعهم كلهم بأنه ينبغي لهم أن يموتوا ميتة رجال أحرار. وبناءً على ذلك، فقد قرروا أن يقتلوا أنفسهم، في موت تلفّه البطولة ويكفل حريتهم، بدلًا من أن يُمسوا عبيدًا تعساء. وعندما دخل الجنود الرومان القلعة، لم يلقوا سوى الصمت والجثث.

وأصبحت متسادا، بذلك، رمزًا "للمعركة الأخيرة" البطولية. وحسبما ورد على لسان موشيه ديان، رئيس هيئة الأركان والسياسي الإسرائيلي الشهير (Dayan 1983: 21): "لا نملك اليوم إلا أن نشير إلى الواقع الذي يقول إن متسادا أضحت رمزًا لبطولة الشعب اليهودي ولحريته، وهي تقول له: حارِب حتى الموت، ولا تستسلم. فضِّل الموت على الأَسر والحرمان من الحرية."

ومن الواضح أن رواية متسادا الخرافية التي حظيت بشعبية وانتشار واسعين تنطوي على بعض عناصر الحقيقة، ولكنها في جوهرها تتباين بونًا شاسعًا عما يخبرنا يوسيفوس به. فهي تأخذ منحى تسلسليًا تاريخيًا طويلًا ومعقدًا، وتفتقر إلى الوضوح في بعض مراحلها، وتختزلها إلى رواية بطولية بسيطة ومباشرة تتّسم بقلة قليلة من المواضيع الواضحة. وهي تركّز

وبناءً على ذلك، يجري بناء رواية متسادا الخرافية من خلال تحويل حدث تاريخي مأساوي إلى أسطورة بطولية. وتتحول الثورة سيئة الحظ إلى حرب بطولية. ويتحول الانتحار الجماعي الذي تثور حوله التساؤلات إلى معركة أخيرة باسلة خاضت غمارها فئة قليلة في مواجهة فئة كثيرة.

على أن طائفة صغيرة من الأبطال الذين نجوا من معركة القدس اختاروا مواصلة القتال ضد الرومان حتى يلاقوا نهايتهم المحتومة، دون أن يستسلموا.

وبناءً على ذلك، يجري بناء رواية متسادا الخرافية من خلال تحويل حدث تاريخي مأساوي إلى أسطورة بطولية. وتتحول الثورة سيئة الحظ إلى حرب بطولية. ويتحول الانتحار الجماعي الذي تثور حوله التساؤلات إلى معركة أخيرة باسلة خاضت غمارها فئة قليلة في مواجهة فئة كثيرة. وبالتالي، تقوم هذه الخرافة في أساسها على النقاط التالية:

١. كان المتمردون/ الغيورون/ مقاتلو الحرية قلة قليلة.

٢. كانوا جنودًا شاركوا في "معركة".

٣. نادرًا ما يرِد ذكر جماعة السيكاري. فقد يظهر "الغيورون" في مظهر أفضل من المعنى الإيحائي السلبي الذي تتضمنه كلمة "السيكاري". وعلى الرغم من أن يوسيفوس لا يشير إلى "الغيورين" بعبارات فيها معنى إيجابي، فقد تمكّن صانعو الخرافة من ربط "الغيورين" بمشاعر من قبيل "الغيرة لنيل الحرية" وبالتالي صوّروا "الغيورين" وأخرجوهم في صورة إيجابية. ولم يجرِ مثل هذا الإجراء (أو لم يكن في الإمكان إجراؤه) على "السيكاري". وغضّ مروجو هذه الخرافة الطرف عن يوسيفوس، الذي وضع "الغيورين" في موضع واحد على الأقل (ص. ٥٩٨-٥٩٩) في مصاف "الأشرار" المتوحشين الذين لم تكن غيرتهم على الفضيلة سوى بهرج باطل.

٤. تختفي المجازر التي اقتُرفت في عين جدي (وفي غيرها من الأماكن).

٥. قَدِم الناس الذين تحصنوا في متسادا من القدس، وهم آخر المدافعين عن المدينة.

٦. ضُرب الحصار على متسادا على مدى ردح طويل من الزمن (ثلاثة أعوام).

٧. "لم يكن هناك مناص" من الإقدام على الانتحار، بمعنى أنه كان مكبوتًا أو مسوّغًا بوصفه وضعًا "لم يكن أي خيار غيره متاحًا".

٨. كثيرًا ما تصوَّر متسادا على أنها قاعدة انطلق منها المتمردون لشنّ "عملياتهم" ضد الرومان.

٩. يُختزل الخطابان اللذان ألقاهما أليعازر بن يائير في خطاب واحد، ويُستبعَد التردد الذي أبداه السيكاري حيال إزهاق أرواح بعضهم بعضًا. فالتردد ليس من شِيم الأبطال.

١٠. يختفي الناجون السبعة الذين اختبأوا في متسادا تمامًا.

وتكمن النتيجة في بناء حكاية بطولية رصينة ومقنعة على نحو ثابت. ويتحقق الأثر المعرفي والحسي عندما تسرد هذه الحكاية في أثناء رحلة مشي إلى متسادا.

تحديد تاريخ اختلاق الخرافة

لقد اضطلعت الرواية الخرافية التي اختُلقت حول متسادا بدور محوري في بلورة هوية فردية وجماعية جديدة لليهود الإسرائيليين على مدى الفترة الممتدة بين العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي. وعادةً ما يرجع تاريخ عودة اليهود إلى فلسطين، والتي تنطوي على الهدف السياسي الصريح المتمثل في إقامة وطن قومي يهودي فيها، إلى حقبة الثمانينيات من القرن التاسع عشر. ومما لا شك فيه أن اليهود الصهاينة العلمانيين عملوا، قبل الإعلان عن قيام الدولة في العام ١٩٤٨، على نسج الحكايات التي تسرد البطولات اليهودية، ومن المؤكد أن اختلاق رواية متسادا الخرافية قد أدى بعض الوظائف التي اكتست أهمية بالغة بالنسبة لهم.

وفي الفترة الواقعة بين العامين ١٩٤٠ و١٩٤٢، تبلورت "خطة الشمال" (المعروفة عمومًا بـ"خطة متسادا") في أوساط القيادة اليهودية. وكانت هذه الخطة نتيجة مباشرة للخوف الذي بثّته عصابة الهغناه في النفوس من النجاح الذي أحرزه الفيلق الأفريقي بقيادة رومل في شمال أفريقيا خلال العام ١٩٤١. وفي مطلع العام ١٩٤٢، بدا أن الخطر الذي شكّله غزو ألمانيا النازية الذي قد يطال فلسطين تهديدًا حقيقيًا.

إذن لماذا كانت هذه الحاجة قائمة؟ في حقبة الانتداب البريطاني، دفعت الحركة الصهيونية بكل ثقلها في سبيل عودة اليهود إلى وطنهم العتيق. وفي فلسطين نفسها التي كانت تقبع تحت سيطرة البريطانيين، كان من الواضح أن العرب لم يرحّبوا باليهود العائدين وأن حركة قومية عربية كانت في طور التشكّل. ولم يكن يتعين على اليشوف (المجتمع اليهودي في فلسطين قبل إقامة دولة إسرائيل) وزعمائه أن يتصدوا لهذا الواقع فحسب، بل وللصور النمطية المعادية للسامية والتي صوّرت اليهود على أنهم غير محاربين، وصرافين وغيرها. وكان من الواضح على مدى هذه السنوات المصيرية، وجود حاجة ملحّة إلى رموز قومية يهودية جديدة ترسم ملامح البطولة، حيث أبصرت رواية متسادا الخرافية النور وخرجت إلى حيز الوجود بصورة طبيعية تقريبًا.

وقد جرى تضخيم الحاجة على رموز يهودية بطولية إلى حدّ هائل خلال العقدين الرابع والخامس من القرن الماضي، بعدما أطلّ شبح الفاشية برأسه على أوروبا وبات التهديد الذي يشكّله النازيون يزداد جلاءً. وفي الفترة الواقعة بين العامين ١٩٤٠ و١٩٤٢، تبلورت "خطة الشمال" (المعروفة عمومًا بـ"خطة متسادا") في أوساط القيادة اليهودية. وكانت هذه الخطة نتيجة مباشرة للخوف الذي بثّته عصابة الهغناه (كبرى المنظمات السرية اليهودية التي أنشئت قبل إقامة دولة إسرائيل وأكثرها أهمية في فلسطين) في النفوس من النجاح الذي أحرزه الفيلق الأفريقي بقيادة رومل في شمال أفريقيا خلال العام ١٩٤١. وفي مطلع العام ١٩٤٢، بدا أن الخطر الذي شكّله غزو ألمانيا النازية الذي قد يطال فلسطين تهديدًا حقيقيًا لا مراء فيه. وكانت الفكرة الأساسية التي تنطوي عليها الخطة المذكورة تنصب على تركيز اليشوف ضمن تجمّع قوي ومحصّن حول جبل الكرمل وحيفا (كما جرى النظر في إخلاء النساء والأطفال – ربما إلى قبرص). وافترضت هذه الخطة ترسيم حدود تغطي منطقة تقارب مساحتها ٢٠٠ كيلومتر مربع، بحيث يتواصل منها القتال ضد الألمان – حسب الاعتقاد الذي ساد في حينه – لأطول فترة ممكنة (انظر Ben-Yehuda 1995: 131–8).

وعلى مدى هذه السنوات الأولى، وضع بضعة من الرياديين ومندوبي الذاكرة الأخلاقيين والمتنفذين نصب أعينهم على اختلاق رواية متسادا الخرافية وتعميمها. ومن هؤلاء على وجه الخصوص يوسف كلوزنر، وشماريا غوطمان الذي ربما كان الأكثر دينامية من بينهم. وقد وجدت الخلافات طريقها إليهم. فعلى سبيل المثال، بينما كان كلوزنر يشير إلى "السيكاري" بعبارات تسبغ عليهم طابعًا بطوليًا، كان غوطمان يخفي هذه الكلمة. وقد وفّر هؤلاء، من خلال بناء الثيمة الأساسية التي تقوم عليها رواية متسادا الخرافية، لبنة مهمة لتشكيل هوية جديدة لليهود العلمانيين في فلسطين. وبما أن ترجمة يوسيفوس الممتازة التي نشرها سِمحوني في العام ١٩٢٣ باتت متاحة، فقد تيسر لمختلقي الخرافة أن يوظفوا هذه الترجمة الجديدة من خلال التلاعب في نصوصها (Ben-Yehuda 1995).

وقد تلقّفت الحركات الشبابية، والمنظمات اليهودية السرية التي أنشئت قبل إقامة دولة إسرائيل، والجيش الإسرائيلي في مرحلة لاحقة، وجهاز التعليم الإسرائيلي، قصة متسادا كما لو كانت الرمز الذي يجسد البطولات اليهودية. لقد جرى تشكيل رواية متسادا الخرافية وتقديمها وقبولها باعتبارها قصية أصيلة من قصص البطولات السامية من أجل خدمة قضية أصيلة لها ما يسوّغها. فقد شددت هذه الرواية على كبرياء اليهود وبسالتهم، حيث حاربوا في سبيل حريتهم وأرضهم. ولم تعمل هذه الرواية البطولية على اختلاق صلة عمرها ٢,٠٠٠ عام فحسب، بل نفخت فيها الروح وأبقتها على قيد الحياة كذلك. ويقع الرمز المادي لهذه الصلة في بيئة تغلب عليها القسوة، ولم يطرأ عليها سوى تغير

طفيف منذ العام ٧٣ للميلاد، كما رُفدت الرواية بعنصر بالغ القوة يضفي المصداقية عليها. وعلى مدى فترة لقي فيها المستوطنون اليهود الجدد في فلسطين (وإسرائيل لاحقًا) التشجيع على التجول في أرجاء البلاد، أصبحت متسادا هي الموقع الذي حظي بالأفضلية على غيره.

وفي الواقع، كانت أعمال التنقيب التي أجراها يغائيل يادين بين العامين ١٩٦٣ و١٩٦٥ الفصل الأخير في فصول بلورة الرواية الخرافية التي تسرد ما حلّ بمتسادا. وقد وفرت هذه التنقيبات الدعامة العلمية التي تأسست عليها خرافة قومية وشعبية، وهذا هو السبب الذي جعل من تلك التنقيبات محط اهتمام لا نظير له على الصعيدين السياسي والاجتماعي في إسرائيل.

وقد عُمِّمت رواية متسادا الخرافية من خلال جميع وسائل التعبير الثقافي المتاحة التي تخطر على بال المرء تقريبًا. ففي المقام الأول، كانت متسادا هي المكون الرئيسي في عمليات التكيف الاجتماعي التي كانت الحركات الشبابية الكبرى الخمس في فلسطين وإسرائيل تعتمدها، وإن كانت كذلك بدرجة أقل بكثير في أوساط الحركتين الدينيتين الرئيسيتين. وثانيًا، وظّفت المنظمات اليهودية السرية التي أنشئت قبل إقامة دولة إسرائيل متسادا بلا موارية في رموزها وعمليات التكيف الاجتماعي التي طبقتها. وعلى هذا المنوال، اعتمد الجيش الإسرائيلي متسادا بوصفها رمزًا وموقعًا يؤدي فيه الجنود الجدد القسم في أثناء الخدمة العسكرية أو بعدها. ورابعًا، عرضت الكتب الدراسية المتداولة في المدارس الأساسية والثانوية، إلى جانب كتب التاريخ والموسوعات العامة، هذه الخرافة. وخامسًا، ظهرت رواية متسادا التاريخية في أدلة السفر وباتت جزءًا من مخزون الذاكرة المرجعية لدى الأدلّاء السياحيين المحليين، وصارت تجسد الموقع المادي الذي يحتضن الاحتفالات والفعاليات الثقافية. وسادسًا، وجدت هذه الخرافة طريقها إلى الشعر والنثر، والمسرحيات، والأفلام، والموسيقى والفنون التشكيلية داخل إسرائيل وخارجها. وأخيرًا، كرّست الصحافة المطبوعة والإلكترونية المساحة والوقت اللازمين لبث هذه الخرافة ونشرها.

واكتمل العمل على تحويل الثورة التي حُكم عليها بالفشل والانتحار الجماعي على قمة جبل متسادا إلى رواية قومية حديثة بحلول العقد السابع من القرن الماضي. وقد شكّلت هذه الخرافة رمزًا ثقافيًا انطلق يضخّم القيم الوطنية، ويسّرت ترسيم الحدود القائمة بين الرمز والأخلاق في الكينونة الإسرائيلية الجديدة، وكانت لبنة من لبنات الهوية الذاتية والجماعية الجديدة الناشئة لدى عدد ليس بالقليل من الإسرائيليين.

(ترجمه عن الانجليزية: ياسين السيد)

الهوامش

١ يستند هذا الفصل في مضمونه إلى مؤلفات بن يهودا (١٩٩٥، و٢٠٠٢، و٢٠٠٩).

٢ مواضع الاستشهاد بيوسيفوس فلافيوس تَرِد من كتابه "الأعمال الكاملة ليوسيفوس"، والذي ترجمه ويليام ويستون إلى الإنكليزية:
Josephus Flavius, *The Complete Works of Josephus*, by Josephus Flavius, translated into English by William Whiston (Grand Rapids, MI: Kregel Publications, 1981).

٣ لا يقدّم يوسيفوس سردًا واضحًا أو ثابتًا للأحداث التي أفضت إلى غزو المدينة .(Josephus 1981: 491) فعلى سبيل المثال، ليس من الواضح ما إذا كان رجال مناحيم تركوا حامية وراءهم هناك، وما إذا كان يتعين على أليعازر بن يائير ورجاله أن يعيدوا احتلالها بعدما عادوا أدراجهم إلى متسادا. ويبيّن يوسيفوس "أنه [أليعازر بن يائير] وجماعة السيكاري التابعة له وضعوا أيديهم على القلعة [قلعة متسادا] بالخديعة" (المصدر السابق: ٥٩٩). وانظر، أيضًا:
Horsley and Hanson (1985: 212), Cotton and Geiger (1989: 1–24) and Cotton and Preiss (1990).

٤ ربما كان ذلك في أواخر العام ٧٢ للميلاد (Simchoni 1923: 512)

٥ ربما كان يوسيفوس يقصد الفيلق العاشر المضيقي (Legio X Fretensis).

٦ لا يبين يوسيفوس السنة التي سقطت فيها متسادا. ويفترض معظم الباحثين أن سقوطها كان في العام ٧٣ للميلاد (Jones 1974; Stern 1989: 370, n. 17; Cotton and Geiger 1989: 21–4; Cotton 1989).

٧ انظر:
Annee Epigraphique (1969–70), section 183; *Pauly-Wissowa, Paulys Realincyclopdie Der Classischen Altertums-Wissenschaft*, Supplementband 14 (Munchen 1974), 121–2, entry 181.

وأنا ممتنّ للغاية لشموئيل سرمونيتا-غيرتيل من دائرة الدراسات الكلاسيكية في الجامعة العبرية الذي أمدّني بالمساعدة في هذا الجانب.

المصادر

- Aberbach, Moses. "Josephus and His Critics: A Reassessment," *Midstream*, 31(5) (1985), pp. 25–9.
- Ben-Yehuda, Nachman. *The Masada Myth*. Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1995.
- —. *Sacrificing Truth: archaeology and the myth of Masada*. Amherst, NY: Prometheus Books, 2002.
- — "The history, myth, and science of Masada. The making of an historical ethnography," in *Ethnographies Revisited: Constructing theory in the field*, eds. William Shaffir, Antony Puddephatt and Steven Kleinknecht. London and New York: Routledge, 2009, pp. 45–331.
- Cotton, Hanna M.. "The date of the Fall of Masada: The Evidence of the Masada Papyri," *Zeitschrift fur Papyrologie und Epigraphik,* 78,1989, pp.157–62.
- — and Joseph Geiger. "The Latin and Greek Documents," in MASADA II. *The Yigael Yadin Excavations 1963–1965. Final Report,* eds. Joseph Aviram, Gideon Foerster and Ehud Netzer. Jerusalem: Israel Exploration Society and the Hebrew University of Jerusalem, 1989.
— and Yehonatan Preiss. "Who Conquered Masada in 66 A.D. and who occupied it until it fell?" *Zion 55*, (1990), Pp. 54–449.
- Dvir, Yehuda "The Ideological Face of the Heroes of Masada," Hauma, 4(15), (1966), pp.46–327.
- Feldman, Louis H. *Josephus and Modern Scholarship (1937–1980)*. New York and Berlin: Walter de Gruyter, (1984).
- Gill, Dan ."A Natural Spur at Masada," *Nature*, 364(6438), (1993), pp 70–569.
- Hawkes, C. ."The Roman Siege of Masada," *Antiquity*, III, (1929), pp. 195–213.
- Hoenig, Sidney B. "The Sicarii in Masada: Glory or infamy?" *Tradition*, 11(1), (1970), pp. 5–30.
- —. "Historic Masada and the *Halakhah," Tradition*, 13(2), (1972), pp. 100–116.
- Horsley, Richard A. and John S. Hanson. *Bandits, Prophets, and Messiahs: Popular Movements at the Time of Jesus*. San Francisco, CA: Harper and Row, 1985.
- Jones, C.P.. "Review (of Eck's book)," *American Journal of Philology*, 95, (1974), pp. 89–90.
- Josephus, Flavius. *The Complete Works of Josephus*, trans. William Whiston. Grand Rapids, MI: Kregel Publications, 1981.
- *Joseippon* [Josephus Gorionides], ed. with intro., commentary, and notes David Flusser. Jerusalem: The Bialik Institute, 1981. (in Hebrew).
- Livne, Micha. *Last Fortress. The Story of Masada and its People*. Tel Aviv: Ministry of Defense, 1986.
- Luttwak, Edward N.. *The Grand Strategy of The Roman Empire, from the First Century to the Third*. London and Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1976.
- Magness, Jodi. "Masada: Arms and the Man," *Biblical Archaeology Review,* 18(4), (1992), pp. 58–67.
- Netzer, E.. *Masada III: the Yigael Yadin excavations 1963–1965 Final Reports: the buildings, stratigraphy and architecture*. Jerusalem: Israel Exploration Society and the Hebrew University of Jerusalem, 1991.
- Paine, Robert. "Masada: A History Of A Memory," *History and Anthropology* 6(4), (1994) pp. 371–409.
- Perrett, Bryan. *Last Stand! Famous Battles Against the Odds*. London: Arms and Armour Press, 1991.
- Philip, Craig. *Last Stands: Famous Battles Against the Odds*. London: Grange Books, 1994.
- Richmond, I.A. "The Roman Siege-Works of Masada, Israel," *The Journal of Roman Studies* LII, (1962), pp. 55–142.

- Stern, Menachem. “Zealots,” in the *Encyclopaedia Judaica,* Year Book 1973, pp. 51–135.
- — (1989). “The Suicide of Eleazar Ben Yair and his Men in Masada and the ‘Fourth Philosophy’,” *Zion,* 4(47), 1989, 97–367 (in Hebrew).
- Yadin, Yigael. *Masada: Herod’s fortress and the zealots’ last stand*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1966.
- Zeitlin, Solomon. “Masada and the Sicarii,” *Jewish Quarterly Review* 55, (1965), pp. 299–317.
- — (1967). “The Sicarii and Masada, “*Jewish Quarterly Review* 57, (1967), pp. 70–251.
- Zerubavel, Yael. *Recovered Roots. Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1995.
- Roth, Jonathan (1995). “The Length of the Siege of Masada,” *Scripta Classica Israelica* 14, (1995), pp.87–110.
- Shargel, Baila R. “The Evolution of the Masada Myth,” *Judaism* 28, (1979), pp. 71–357.
- Shatzman, Israel. “The Roman Siege On Masada,” in *The Story of Masada: Discoveries from the Excavations,* ed. Gila Hurvitz. Jerusalem: Hebrew University; Antiquities Authority; the Society for Studying Eretz Israel and Its Antiquities, 1993, pp. 20–105.
- Simchoni, Y.N.. “Notes and Explanations” to the Hebrew translation (from Greek) of Joseph Ben-Matityahu (Josephus Flavius), *The History of the Wars of the Jews With the Romans*. Tel Aviv: Masada (in Hebrew), 1970 [1923], pp. 409–520.
- Spero, Shubert. “In Defense of the Defenders of Masada,” *Tradition* 11(1), (1970), pp. 31–43.